دور الشيخ عز الدين القسام في الكفاح الفلسطيني

د. حسن صالح عثمان

تمهيد :

في الثلث الأخير من القرن الماضي، لم تكن الحدود القائمة اليوم بين أجزاء الوطن العربي موجودة آنذاك، بل كان الوطن العربي وطناً واحداً مفتوحاً أمام المواطنين العرب، وكان الشباب العربي الواعي في مختلف البلاد العربية يتدارسون أوضاع وطنهم ويؤسسون الأحزاب والحركات الوطنية للنضال من أجل تحريره.

في تلك الفترة، ولد عز الدين عبدالقادر القسَّام سنة ١٨٧١م في بلدة جبلة قضاء اللاذقية، وقد نشأ نشأة قاسية، حيث كان والده فقيرا، فكان وهو في الثامنة من عمره يعين والده على كسب قوت العائلة وتدبير أمورها المعاشية، كما كان يعمل بأجر زهيد في حقول الأغنياء في زراعة الدخان وقطافه وفي حصاد القمح والشعير والذرة، فنجد أنه لم يستمتع بطفولته فيلهو ويلعب مع أنداده فكان يميل إلى العزلة والتفكير في هذه الحياة القاسية التي يعيشها أهله.

وفي المساء كان يحمل حقيبته وينطلق إلى بيت الشيخ محمود ليتعلم القراءة والكتابة وتلاوة القرآن وذلك مقابل أجر يومىّ محدد «رغيف وبيضة»[١] وفي شبابه رحل إلى مصر سنة ١٨٨٥م للدراسة في الأزهر الشريف، وكان من عداد تلاميذ الشيخ محمد عبده[٢]. لمقاومة سلطة الانتداب واليهود في فلسطين، وأصبح الرأي العام ينظر إلى القسَّام وأتباعه نظرة تقدير بالغ وإكبار عظيم للأبطال الشهداء.

النعمي، هاشم بن سعيد،
(٢٠) عسير في الماضي والحاضر، مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر جدة، بدون تاريخ.
الواسعي، عبدالواسع بين يحيى،
(٢١) تاريخ اليمن، الدار اليمنية للنشر والتوزيع، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
الهمداني،
(٢٢) صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع، دار اليمامة، الرياض ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.
ياقوت، أبو عبدالله الحموي،
(٢٣) معجم البلدان، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٥٥م ـ ١٩٥٧م.

ثانياً/ غير العربية:

Abdulfattah, Kamal;
(1) ***Mountain Farmer and Fellah in ᶜAsir Southwest Saudi Arabia,*** *Erlangen, 1981.*
Cornwallis, Sir Kinahan;
(2) ***Asir before World War I,*** *The Oleander Press, Cambridge, 1976.*
Mansfield, Peter;
(3) ***The Arabs,*** *1st edit. Cox & Wyman Ltd, London, 1977.*
Mughram, M.A.;
(4) «Assarah, Saudi Arabia,» Ph.D. Thesis, University of Durham, 1973.
Philby, H. St. J.B.;
(5) ***Arabian Highlands,*** *Cornell University Press, New York, 1952.*
Rutter. E.
(6) ***The Holy Cities of Arabia,*** *1st edit., The Westminster Press, 1928.*
Al-Zaylaᶜī, Ahmad ᶜUmar;
(7) «The Southern Area of the Amirate of Makkah (3rd-7th/9th-13th Centuries) Its History Archaeology and Eqigraphy», Ph.D. Thesis, University of Durham, 1983.

Asnaf Sagad Minas
Titicaca
Creasy Hist of the Ottoman Turks

(٥) قلب جزيرة العرب، الطبعة الثانية، مكتبة النصر الحديثة، الرياض، ١٣٨٨هـ.

رفيع، محمد عمر،

(٦) في ربوع عسير، دار العهد الجديد، القاهرة، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م.

الزهراني، محمد مسفر،

(٧) بلاد زهران، الطبعة الأولى، مكة المكرمة، ١٣٩٠هـ.

الزيلعي، أحمد بن عمر،

(٨) مكة وعلاقاتها الخارجية (٣٠١/٤٨٧هـ) عمادة شؤون المكتبات جامعة الرياض، الرياض، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

(٩) «المواقع الإسلامية المندثرة في وادي حلي»، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الرسالة التاسعة والثلاثون، الحولية السابعة، الكويت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

السلوك، علي بن صالح،

(١٠) المعجم الجغرافي للبلاد السعودية (بلاد غامد وزهران)، دار اليمامة بالرياض، بيروت، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

شاكر، م*$حمود،

(١١) شبه جزيرة العرب (عسير)، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.

العقيلي، محمد بن أحمد عيسى،

(١٢) الأدب الشعبي في الجنوب، دار اليمامة، الرياض ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

(١٣) المخلاف السليماني أو الجنوب العربي في التاريخ، مطابع الرياض، الرياض، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م.

(١٤) المعجم الجغرافي للبلاد السعودية (مقاطعة جازان)، دار اليمامة، الرياض ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

العمروي، عمر غرامة،

(١٥) المعجم الجغرافي للبلاد السعودية (بلاد رجال الحجر) دار اليمامة، الرياض ١٣٩٧هـ/٩٨هـ.

الغنيم، عبدالله يوسف.

(١٦) جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري، الطبعة الأولى، ذات السلاسل، الكويت، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

كحالة، عمر رضا،

(١٧) معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، دار العلم للملايين بيروت، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

المقدسي، محمد بن أحمد البشاري،

(١٨) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، الطبعة الثانية، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٠٦م.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي،

(١٩) لسان العرب المحيط، اعداد وتصنيف يوسف خياط، دار لسان العرب، بيروت، بدون تاريخ.

مقياساً للكرم عند المقارنة بين قبيلة وأخرى كما فعل المؤلف. فبعض القبائل المستقرة ولا سيما في منطقة القنفذة عملت على أبطالها، لما فيها من البذخ والتبذير والخسائر الكبيرة، وعقدت فيما بينها اتفاقيات لهذا الغرض تعرف بأسم «المُرَابَطَة» يُغَرَّمُ المخالف بمقتضاها غرامة كبيرة قد تنوف على تكاليف هذه الولائم. ومن القبائل التي أبطلت ولائم الختان قبائل ساحل حلي، وحاضرة وادي يبة، في حين أنها تقام بين قبائل شرق وادي يبه وقنونا والمناطق الواقعة إلى الشمال منها.

(٨٥) بلقرن وخثم من قبائل السراة المعروفة، أنظر: فؤاد حمزة، **قلب جزيرة العرب**، ص: ١٤٨، ١٩٠، كحالة، **معجم قبائل العرب**، جـ ١، ص: ١٠٣ ـ ١٠٤، ٣٣١.

(٨٦م) فيما يلي أقسام قبائل زهران وهم: بيضان، وبنو حسن، وبلخزمر [بنو الخزمر]، وبنو كنانة، وبنو عامر [في الأصل عمرو]، وبنو عمر، وبنو عدوان، وقريش (المترجم) عن هذه القبائل وغيرها من قبائل زهران، أنظر: السلوك، **بلاد غامد وزهران**، ٢٥٤ ـ ٨. (المترجم) المعروف عن قبائل بلقرن وخثعم أنها من القبائل المضيافة، ولا يمكن أن تؤخذ تجربة المؤلف الشخصية وسيلة لتعميمها على هاتين القبيلتين المشهورتين بكرم الضيافة.

(٨٧) وكما قيل سابقاً عن بلقرن وخثعم يمكن أن يقال عن بني سعد، وبني مالك الذين يشتهرون بكرمهم وحسن ضيافتهم، ويجب ألا يغيب عن البال أن المؤلف كان في آخر رحلته، وكان يسير بجد للوصول إلى الطائف، فربما كان اتصاله فقط بالمقاهي، والمحطات التي تقوم على الطرق والتي يعيش أهلها على ما يحصلون عليه مقابل تقديم هذه الخدمات للمسافرين. وليس بالضرورة أن يكون العاملون في هذه المقاهي من القبائل التي ذكرها المؤلف؛ لأن هذه الأعمال كانت، حتى عهد قريب، تستعيبها القبائل المذكورة.

(٨٨) ارتحل فيلبي من جازان إلى الليث مروراً بالقنفذة في سنة ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٦، وقد دون وصف هذه الرحلة والأماكن التي زارها في كتابه *Arabian Hiqhiands, PP. 648-706.*

مصادر ومراجع التحقيق

أولاً: العربية:

البركاتي، شرف بن عبد المحسن،

(١)/ **الرحلة اليمانية**، مطبعة السعادية، القاهرة ١٣٣٣٠ هـ / ١٩١٢.

البلادي، عاتق بن غيث،

(٢)/ **بين مكة واليمن**، دار مكة للطباعة والنشر، مكة المكرمة، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م

الجاسر، حمد،

(٣)/ **في سراة غامد وزهران**، دار اليمامة، الرياض ١٣٩١ هـ/ ١٩٧١ م

حمزة، فؤاد،

(٤)/ **في بلاد عسير**، القاهرة ١٩٥١ م.

يتركون علامة على شعر الصبي الذي لم يختتن، ولا يحق له أن يرجل شعره على عادة المختونين إلا بعد الختان. في ربوع عسير، ص٨٤.

(٧٤) من القبائل العسيرية التي كانت تؤخر الختان إلى ما بعد العشرين قبيلة ربيعة. أنظر: فؤاد حمزة، في بلاد عسير، ص: ١٠٩.

(٧٥م) ربما كان ذلك في عهد المؤلف، أما في الوقت الحاضر فقد منعت زراعة ومنع بيعه وترويجه

(٧٥) وادي بيش من أكبر أودية منطقة جازان، وقد مر ذكره عند الحديث عن أودية تهامة. أنظر: العقيلي، المخلاف السليماني، جـ١، ص: ٣٩ - ٤٠، المعجم الجغرافي للبلاد السعودية (مقاطعة جازان)، منشورات دار اليمامة، الرياض، ١٣٨٩، ص: ٦١ - ٦٤.

(٧٦) لا تزال خرائب مدينة الادريسي قائمة حتى اليوم، وهي ذات قيمة أثرية كبيرة، وقد قامت ادارة الآثار والمتاحف بتسويرها، وبنت متحفاً بالقرب من هذا المكان لحفظ آثار منطقة جازان فيه.

(٧٧م) هروب، وسوقها الأحد. الحقو. وسوقها الاثنين. صبيا، وسوقها الثلاثاء. أبو عريش، وسوقها الربوع. ومغزل [في الأصل مغزى]، وسوقها الثلاثاء. الدرب، وسوقها الخميس، بيش (أم الخشب)، وسوقها السبت.

(٧٨) طائر بين النسر والعقاب، ويعرف بأسم كاسر العظام. وقد جاءت تسمية الكاسر من ضم الطائر لجناحيه أثناء الانقضاض. أنظر: ابن منظور، لسان العرب المحيط، اعداد وتضنيف يوسف خياط، دار لسان العرب، بيروت، م٣، ص: ٢٥٦.

(٧٩م) يمتد معدل الحزام أو النطاق النباتي كما يلي: السلم، والسمر والاثل، والسدر من السهل الساحلي إلى ارتفاع ٥٠٠٠ قدم، والقتاد والمقل والقرظ [وعموم الصمغيات] من ٥٥٠٠ - ٧٠٠ قدم، والطلح من ٦٥٠٠ - ٧٥٠٠ قدم، والزيتون البرى من ٥٥٠٠ - ٧٥٠٠ قدم، والعرعر من ٦٥٠٠ - ٩٠٠٠ قدم، والورد البرى من ٨٥٠٠ - ٩٠٠٠ قدم.

(٨٠) تسمى هذه الرياح محلياً بأسم الغُبْرَة، وهي تهب على المنطقة في شهري يونية ويوليو من كل عام. أنظر: العقيلي، مقاطعة جازان، ص: ١٧.

(٨١) في الأصل: سيلان.

(٨٢) السانية (جمع ساقي)، كانت وسيلة الري الوحيدة في المنطقة عن طريق الآبار، وقبل انتشار المضخات. أنظر:

Mughram, M.A., «Assarah, Saudi Arabia» Ph.D. Thesis, University of Durham, 1973. P. 75; Al-Zaylaʿi, «The Southern Area of the Amirate of Makkah» 195.

(٨٣) نسبة إلى الحجر بن الهنو بن الأزد من قحطان. عن هذه القبائل وتسميتهم بهذا الأسم، أنظر: العمروي، عمر غرامة، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية (بلاد رجال الحجر)، دار اليمامة، الرياض، ١٣٩٧ - ٩٨ هـ، ص: ٥١ والصفحات التي بعدها، النعمي، عسير في الماضي والحاضر، ٤٦، ٥١، فؤاد حمزة، في بلاد عسير، ١٥٧ ومابعدها.

(٨٤) تسمى الولائم التي تقدم يوم الختان في منطقة القنفذة باسم القرى، وفي جازان تسمى الجبْر (أنظر العقيلي، الأدب الشعبي، ص: ٣٢)، وغالباً لا يقوم بها آباء المختونين وحدهم، بل يتضامن معهم كل أفراد القبيلة، ويفرقونها بحسب الرأس فيما يعرف باسم «الفَرْقة». ولا ينبغي أن تؤخذ هذه العادة

(٦٣م) توجد ثلاث قبائل يطلق عليها اسم بني مالك، وجميعهم من أصول مختلفة، وهم: بنو مالك جنوب الطائف، وبنو مالك العسيريون وبنو مالك على الحدود اليمنية في أعالي وادي ضمد ووادي دافا.

(٦٤) عن هذه القبائل العسيرية، أنظر: النعمي، **عسير في الماضي والحاضر**، ص٣٤ ـ ٥٣. وعن قبائل بني مالك، انظر: فؤاد حمزة في **بلاد عسير**، ص١٠٤، العقيلي، **المخلاف السليماني**، ص٨٨ ـ ٩٨، كحالة، **معجم قبائل العرب**، جـ٣، ص١٠٢٦ ـ ٣٢.

(٦٥م) المنازل الحجرية في جميع أنحاء هذه الجبال تبنى بأحجار مهذبة تقريباً، وتملأ الفرج بالمونة حتى تصبح تقريباً مثل الحجر الأملس المنحوت، وترصع جدران هذه المنازل في الغالب بنماذج من المرو وبصورة عامة حول النوافذ، وأحياناً تؤطر النوافذ في البيوت المبنية من الطين باطار من الدهان الابيض أو البرتقالي.

(٦٦م) فروع قبيلة قحطان المستقرة هي: بنو بشر، ورفيدة، وشُريف، وسنحان، وعبيدة، ووادعة. ومن شهران: تمنية، والمسقي، والجهرا، وسيحان، ووادي ابن هشبل [في الأصل، هشبان] وناهس وتندحه، وعتود، وقارة [لعلها القارية]، وبنو ماجار [لعلها آل عاجر]، [المترجم] خلط المؤلف هنا بين اسماء القبائل وأسماء الأماكن، يتضح ذلك من مقابلة الأسماء التي أوردها هنا مع الكشوف التي تضمنها كتاب **عسير في الماضي والحاضر** لمؤلفه هاشم بن سعيد النعمي، ولمزيد من المعلومات عن اسماء قبائل قحطان وشهران، واسماء المواقع التي ينتمون إليها، انظر: **المرجع نفسه**، ص١٤ ـ ١٩، ٤١ ـ ٤٦.

(٦٧) يبدأ وادي عرين من عراعر التي توالي تهامة من الغرب، ويصب في المجزعة، ومن القرى التي تقوم عليه: عراعر، والحصن، وآل المؤنس، ومدينة الظهران. أنظر: فؤاد حمزة، في **بلاد عسير**، ص١٣٩.

(٦٨م) العقاب أو الممرات التي تؤدي إلى تهامة وتقع إلى الجنوب من أبها، هي: عقبة ضلع، وعقبة جدلة (عتود)، وعقبة القرون (تمنية)، وعقبة آل الخلف (وادي بيش)، وشراقيب (رأس بيش) ومفتاح الخشبة (وادي قاعة)، وعلب (حدود اليمن).

(٦٩م) هذه الجبال بركانية، ولكن في أعلى العقبة التي يبلغ ارتفاعها ٨٠٠٠ قدم، توجد طبقة من الحجر الرملي الوردي اللون المتماسك بالكربونات.

(٧٠) تعرف جلة الموت باسم قلة الموت، وتقع بالقرب من جبل الريث إلى الجنوب من أبها. انظر: البلادي، **بين مكة واليمن**، ص٢٩٦. جبال مشيث *Mushaith*، هكذا وردت في الأصل، ولم أجد لها ذكرا في المصادر الميسورة، أو على خريطة المملكة. ولعلها جبال مشيط نسبة إلى بعض فروع قبيلة آل مشيط المعروفة، حيث أخبرت أن لها فروعاً هناك.

(٧١) وادي دَفَا، أحد روافد وادي بيش من شمال بلاد خولان، انظر: العقيلي، **المخلاف السليماني**، جـ١، ص٣٩.

(٧٢) عن هذه القبائل ومواطنهم، أنظر: العقيلي، **المخلاف السليماني**، جـ١، ص٨٨ ـ ٨٩، البلادي، **بين مكة واليمن**، ص٢٨٨ ـ ٢٩٧.

(٧٣) يذكر رفيع أن بعض قبائل هذيل القاطنة على بعد ثلاث مراحل من مكة، وجنوباً عنها مما يلي السراة

المناطق كلمة المُدَرَّمِينْ، مفرد مُدَرَّم، وفي جازان يطلق على الواحد منهم الدَّرْم. أنظر العقيلي، **الأدب الشعبي في الجنوب**، ص٢٩.

(٥٢) عن هذه الأدوات الموسيقية، أنظر: العقيلي، **الأدب الشعبي في الجنوب**، ص٢٤.

(٥٣) تطلق كلمة الجَيْش على نوع الرقصة، والمُجَيِّشَة (مفرد مُجَيِّش) على الرجال الذين يمارسونها، وتعرف في جازان باسم العَزَاوِي، انظر: العقيلي، **الأدب الشعبي في الجنوب**، ص٢٧.

(٥٤) تسمى زيارة القرى المحيطة من قبل هؤلاء باسم دَعِيَّة أو دعوة، وفي جازان تعرف باسم المَطَالِيْب، انظر: العقيلي، **الأدب الشعبي في الجنوب**، ص٣٠.

(٥٥) يسمى هذان العبدان الختان واللازم، وعن كيفية اجراء عملية الختان ولباس المختونين، أنظر: رفيع، **في ربوع عسير**، ص٨٦ ـ ٨٧.

(٥٦م) ختان السلخ الذي كان يمارس في تهامة قبل أربعين سنة، هو إزالة الجلدة تماماً من الأسفل إلى داخل ما بين الفخذين، ولا يزال يمارسه بعض البدو. وقد خفضت في تهامة إلى سلخ القضيب بكامله واستمر ذلك حتى عهد قريب. ولكن هذه الطريقة منعت الآن من قبل الملك عبدالعزيز. ويمكن بمقتضى هذا المنع ازالة عرض بنانتين فقط تبدأ من الأسفل. وترفع الغرلة ثم تقطع قطعتين؛ احداهما إلى أعلى، والأخرى إلى أسفل، ويعالج الجرح يومياً بورق السَّلَع. وفي سنة ١٩٤٥م حكم على ثمانية أولاد من أهل وادي حلي بقطع يد كل منهم، لتجاوزهم الطريقة المتبعة، واجرائها على الشكل الممنوع. [المترجم] صدر الأمر بالعفو عنهم قبل اجراء عملية القطع.

(٥٧) تقع كياد على حافة وادي حلي الجنوبية، البلادي، **بين مكة واليمن** ص٢١١، الزيلعي، «**المواقع الإسلامية المندثرة في وادي حلي**» ص٣٣، ٣٥. أما قبيلة بني هلال، فهي من القبائل المشهورة التي تنتشر حول مدينة البرك، وهي تتكون من أربعة أفخاذ. انظر: كحالة، **معجم قبائل العرب**، جـ٣، ص١٢٢٠.

(٥٨) هذه المواقع من المراكز الرئيسية في المنطقة الجنوبية الغربية، انظر: البلادي، **بين مكة واليمن**، ص٢١٧، ٢٣٠، ٣١٠.

(٥٩) يقصد بهذه المنطقة البركانية حرة كنانة أو حرة بني هلال المعروفة في المصادر العربية، أنظر: الهمداني، **صفة جزيرة العرب**، تحقيق محمد بن علي الأكوع، منشورات دار اليمامة، الرياض، ١٣٩٤، ص١١٨، ٢٥٨، ياقوت، **معجم البلدان**، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٩٥٥م، جـ٢، ص٢٥٠.

(٦٠م) حقل المقذوفات البركانية [الحرة] يفصل تهامة الشام عن تهامة عسير. والبرك يتبع القنفذة من الناحية الادارية، أما القحمة فهي تابعة لجيزان، وفي الماضي كانت تهامة عسير تحت حكم الإدريسي.

(٦١) في الأصل، ثوار، وعقبة شعار من العقاب المشهورة التي تقع بين محايل وأبها، وهي على بعد حوالي ٢٨ كيلو متراً إلى الشمال من أبها، أنظر: فؤاد حمزة، **في بلاد عسير**، ص٩١.

(٦٢م) العقاب، أو الممرات التي تؤدي إلى تهامة، وتقع إلى الشمال من أبها هي: عقبة سمعه (السودة)، وعقبة قضا (العصامي)، وعقبة شعار (وادي تية)، والجدعا (بيحان)، وجلجلة (بللسمر) وعقبة ساقين (تنومة)، وعقبة سنان (النماص). عن هذه العقاب، أنظر: فؤاد حمزة، **في بلاد عسير**، ص٩١ ـ ٩٣.

(٤٢م) القِشْر: شراب أو نقيع يعمل من قشر البن، وهو أيضاً يشرب في تهامة عسير بصورة عامة.

(٤٣) يذكر فيلبي هذه العادة أثناء زيادته لحلي، ونزوله ضيفاً على شيخ كنانة إبراهيم الكناني، جد شيخها الحالي، عبدالرحمن بن عيسى الكناني، ويضيف بأن الخادم صب له ثلاثة فناجين متتابعة قبل أن يقدم شيئاً لبقية الحاضرين، أنظر:

Arabian Highlands, New York, 1952, 687.

(٤٤) (والتهاميون بالمقاييس العربية ليسوا كرماء) ولا يري فيلبي أن هذا الوضع ناتج عن بخل وإنما بسبب الفقر. أنظر:

Arabian Highlands, 689.

(٤٥) هذا الحزام يسمى جَدِيْلَة، وهو يصنع محلياً من سيور الجلد الرفيعة ويوضع على البطن منذ الصغر، وكان الاعتقاد السائد أن هذه الجديلة تقي حاملها من الفتق، ومن دوالي الخصية.

(٤٦) يعرف هذا الشريط محلياً باسم الشِّلاَف أو الغُدَار، ويصنع من السيور الجلدية الرفيعة ويرصَّع بحبيبات من الفضة.

(٤٧) حزمة النبات هذه تسمى طِلاَلَة أو غُرْزَة، وهي تغرز في عصابة مصنوعة من النبات، أو من الخيزران الرفيع المرصع بحبيبات الفضة، وتعرف باسم المشقة.

(٤٨) بعض هذه الصفات التي ذكرها المؤلف كانت مرتبطة بالجهل، أما بعد إنتشار التعليم في الوقت الحاضر، فإن أهالي حلي أصبحوا في غاية التهذيب. أما مرض الدودة الغينية فيعرف محلياً باسم العُرُوْق، وهو يسبب آلاماً مبرحة، ويبدأ بتورم في الأطراف غالباً، ثم ينتج عنه تقيح لم يلبث أن ينكشف عن عرق أبيض يشبه الدودة، حيث يأخذ المريض في جر هذا العرق رويداً رويدا حتى يتخلص منه الجسم. وبالتالي يشفي المريض، وتستغرق هذه العملية مدة طويلة، وينتج عن هذا المرض قصور أو تشوه في الأعضاء أحياناً.

(٤٩) يسمى هذا الاحتفال الهَوْد، أنظر: العقيلي، **الأدب الشعبي في الجنوب**، منشورات دار اليمامة بالرياض، ١٣٩٢هـ، ص٢٩.

(٥٠) عن عادة الختان في هذه المناطق، أنظر:
شاكر، محمود، **شبه جزيرة العرب (عسير)**، دمشق ١٣٩٦هـ، ٨٥، رفيع، محمد عمر، **في ربوع عسير**، القاهرة، ١٣٧٣هـ، ص٨٤ ـ ٨٧، النعمي، **عسير في الماضي والحاضر**، ص٥٨، فؤاد حمزة، **في بلاد عسير**، ص١٠٩ ـ ١١١.

(٥١م) لا تلبس الدَّكَّة، ولا السروال، ولا الحزام الخاص بهما إلا من قبل الثَّلاَّبَة خلال الاحتفالات التي تسبق الختان. (المترجم) تعرف هذه التنورة، على الأقل في تهامة، باسم الدكة، وهي من قماش الحرير بألوانه الأحمر والأخضر والأصفر أو الأبيض. وتتكون من قطعة طويلة تتراوح بين ٧ و١٠ أذرع، تخاط من الطرفين وتزم من الأعلى بقدر الخصر بحيث تلبس فوق السروال، وتشد بحزام الخنجر وعندما يستدير الثلاب أثناء الرقص فإن الشكل الفضفاض للدكة يرتفع بفعل الهواء من الأسفل محدثاً شكلاً مثل المظلة التي يستخدمها جنود سلاح المظلات. وتطلق كلمة الثلابة على الفتية الذين ينوون الختان، ويمارسون هذا النوع من الرقص قبل إجراء عملية الختان، والمفرد ثلاب. ويطلق عليهم في بعض

(٢٩) عن هذه الأودية، أنظر: العقيلي، **المخلاف السليماني**، جـ ١ ص ٣٦ - ٤٠.

*Carnwallis, **Asir before World War I, 36 - 37.***

(٣٠) عن هذه القبائل، انظر فؤاد حمزة، **قلب جزيرة العرب**، الطبعة الثانية، مكتبة النصر الحديثة، الرياض، ص ١٥٣ - ٤.

(٣١) في الاصل، الشَّارِدي، وهي نسبة الشخص الواحد إلى هذه القبيلة. وربما يقصد المؤلف ببلعير سكان القوز، ولكن بلعير تشمل سكان القوز والمَقَاعِدَة، سكان الحبيل، والنواشرة، والشواردة. أنظر: كحالة، **معجم قبائل العرب**، جـ ١ ص ١٠٣، البركاتي، **الرحلة اليمانية**، ١٠٢.

(٣٢م) تسكن قبيلتا زبيد والسعدة في وادي لومة. وسكان دوقة هم: الخِيرَة، والمَشَايِخ، والأشراف الحَرَازِيَة، ويسكن وادي قنونا قبائل بني زيد، وبدو الرواشد يسكنون في وادي ناوان، وزُبَيْد تسكن في وادي قَرْمَا، وبنو هلال يسكنون في وادي عَمِق.

(٣٣) يعرف العَقْم الرئيسي في وادي حلي باسم جُعَيْرَة، ويليه في الأهمية الرُّصَّاص، ويقصد بالعقم السد الترابي الذي يحجز مياه السيول لغرض رى الأراضي الزراعية، عن العقم (العقوم) ونظام الري في هذه المنطقة، أنظر:

*Abdulfattah, Kamal, **Mountain Farmer and Fellah in ᶜAsir**, Erlangen, 1981.*

(٣٤) قرية المشايخ، وهي تقع في ساحل حلي، أنظر: الزيلعي، «**المواقع المندثرة في وادي حلي**»، ص ٣٨.

(٣٥م) خلال رحلتي عبر تهامة في عام ١٩٤٧م، تأكدت من هذا، بصورة لا تقبل الشك، عندما اطلعت في شهر يونيه على المحصول الخامس في وادي حلي. [المترجم] يطلق الاهالي على هذه الحصدات على التوالي اسم: (١) الشَّب، (٢) الخَلْف، (٣) خلف الخلف، (٤) خلف الجِنِّيَّة أنظر:

*Abdulfattah, **Mountain Farmer and Fellah in ᶜAs'ir**,p.43.*

(٣٦م) مثل الريحان، والشِّيْح، والشَّار، والكَاذِي.

(٣٧) أوراق الدوم هذه تسمى محلياً الطفي، ويستخدم في كثير من الاغراض المنزلية، وقد لقيت زراعته وصناعته والاتجار به قدرا كبيرا من الرواج منذ زمن طويل. أنظر: الزيلعي، **مكة وعلاقاتها الخارجية** عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض، الرياض ١٤٠١هـ، ص ١٨٩.

(٣٨) تسمى هذه الفاكهة النَّبْق، وهي تشبه ثمر التفاح الصغير البري انظر:

*Rutter, **The Holy Cities of Arabia**, The Westminster Press, London, 1928, vol. I, p.*

(٣٩) هذه العادة كانت شائعة، لأن راكب الجمل يكشف البيوت من الداخل، ومن هنا فإن عليه أن يمشي على رجليه كلما كان طريقه يشق المحلات السكنية، وان لم يفعل فإن أهل المحلة يجبرونه على النزول عن ظهر جمله والمشي على رجليه.

(٤٠) اشتهرت هذه المنطقة، ولاسيما حلي ابن يعقوب، بصناعة الأقداح من الخشب منذ مدة طويلة. أنظر: المقدسي، **أحسن التقاسيم** طبعة ليدن، ١٩٠٦م، ص ٩٨، الزيلعي، **مكة وعلاقاتها الخارجية** ص ١٨٩.

(٤١) هذه المعاليق تسمى سلال أو شباك (مفردها سلة أو شبكة)، وهي تعمل في تهامة من المَشَق المصنوع من الطفي، أما في المناطق الجبلية فتعمل من السيور الجلدية.

(٢١) آل جبلي، أحد فخوذ قبائل بارق المذكورة آنفا، أنظر النعمي، المرجع نفسه، ص ٥١، وحلي واد كبير، ترفده كثير من الأودية الصغيرة، وهو ينبع من جبال السراة، ويصب في البحر الأحمر في المنطقة المعروفة باسم ساحل حلي. أنظر: البلادي، بين مكة واليمن، دار مكة للطباعة والنشر، مكة المكرمة، ١٤٠٤هـ، ص ١٧٦ ـ ٢١١. الزيلعي، «المواقع الإسلامية المندثرة في وادى حلي»، حوليات كلية الآداب، الرسالة التاسعة والثلاثون، الحولية السابعة جامعة الكويت، ١٤٠٦هـ، ص ١١، والصفحات التي بعدها.

(٢٢) عن بعض هذه القبائل، أنظر: العقيلي، المخلاف السليماني، الرياض، ١٣٧٨، جـ ١ ص ٧٩، النعمي، عسير في الماضي والحاضر، ص ٤١ ـ ٤٢، ٥٢، ٥٣، البلادي بين مكة واليمن، ٢٢٢ ـ ٣٠، ٢٨٨، ٢٩٦ ـ ٧.

(٢٣) هو الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود، مؤسس المملكة العربية السعودية، وقد اشتهر بهذه الكنية بين الكتاب العرب المعاصرين له، وهكذا يعرف بين الكتاب الغربيين حتى الآن.
أنظر: فؤاد حمزة، في بلاد عسير، القاهرة ١٩٥١م. ص ١٠ ـ ١١

*Mansfield, Peter; **The Arabs,** Ist. edit.,*

London, 1976, PP. 400 - 401.

(٢٤) يعرفون باسم عمور السبطة نسبة إلى اسم قريتهم التي تعتبر أول قرى حلي في سهل تهامة. أنظر: البلادي، بين مكة واليمن، ص ١٩٢،

*Cornwallis, **Asir before World War I,** The Oleander Press, Cambridge, 1976, 35.*

(٢٥م) أسواق حلي هي:
كِيَاد، وسوقه الاحد. مخشوش، وسوقه الاثنين. السبطة، وسوقها الأربعاء. الرُّدْحَة [في الأصل ربحة] وسوقها الخميس. (المترجم) انتقل هذا السوق إلى قرية الصُّفَّة، المركز الاداري لشرق حلي في الوقت الحاضر.
أسواق وادي يبه هي:
قبيلة بَلْعَيْر، وسوقهم الثلاثاء. بنويعل، وسوقهم الأربعاء. وربيعة، وسوقهم الجمعة. الشَّوارِدَة، وسوقهم السبت. (المترجم) انتقل هذا السوق إلى قرية الجَبِيْل، احدى قرى وادي يَبَه الرئيسية، واستحدث سوق آخر هو سوق الخميس في قرية القَوْز المعروفة في المراجع باسم قوز بلعير، وهو الآن من أهم أسواق وادي يبة بل من أهم أسواق ساحل منطقة القنفذة.

(٢٦) يذكر عبدالله الغنيم أن عرض سهل تهامة يتراوح بين ٢٠ و ٧٠ كيلو متراً. أنظر: جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك لابي عبيد البكري، الطبعة الأولى، ذات السلاسل، الكويت ١٣٩٧هـ، ص ١١٠.

(٢٧) في الأصل، دونقة.

(٢٨) عن هذه الأودية، أنظر: البركاتي، الرحلة اليمانية، ص ٥٨، البلادي بين مكة واليمن، ص ٣٠ ـ ١٩٥،

Al-Zayla ᶜi, «The Southern, Area of the Amirate of Makkah,» P. 91.

والسكاكين ، والخناجر لهذا الغرض. ويختلف شكل الجنبية من منطقة إلى أخرى، فهي في بلاد غامد وزهران والعرضية قصيرة ومفضضة، في حين أنها في منطقة تَحَايل وماجاورها، طويلة وغمدها من الخشب المغطى بالجلد الذي ينتهي بذيل من السيور الجلدية.

(١١) يعرف هذا الفخذ باسم غامد الزِّنَاد، وتنتشر ديارهم في بطاط والفَرَعَة ونُصَبَة والعطوة، ويَبْس، حيث تنتهي ديارهم من الغرب بالقرب من بلاد زبيد، انظر: حمد الجاسر، في **سراة غامد وزهران**، منشورات دار اليمامة، الرياض، ١٣٩١، ص ٢٦٠، **السلوك بلاد غامد وزهران**، ١٤.

(١٢) وادي بطاط، يطلق على أعلى وادي الأحسبة المذكور، وبه مقر الشيخ الزندي، شيخ قبائل غامد الزناد، أنظر: حمد الجاسر، في **سراة غامد وزهران**، ص ٢٦٠، السلوك، **بلاد غامد وزهران**، **ص ٥٧**.

(١٣) **إحدى قبائل العرضية التابعة لمنطقة القنفذة. أنظر: البركاتي، الرحلة اليمانية**، القاهرة ١٩١٢، ص ١٠٣، الواسعي **تاريخ اليمن**، الطبعة الثالثة، الدار اليمنية للنشر والتوزيع ١٤٠٣، ١١٤،

(١٤) ثُرَيْبَان، المقر الرئيسي لقبيلة بَلْقَرْن التهامية، وهو يتبع امارة القنفذة، ويقع في أعلى وادي يَبَة، وقبيلة بلقرن، أحدى قبائل العُرْضِيَّة الرئيسية، أنظر عن هذه القبيلة: كحالة، **معجم قبائل العرب**، دار العلم للملايين، بيروت، ١٣٨٨هـ، جـ ١، ص ١٠٣.

(١٥) بلاد عُمَارَة، وتعرف باسم العرضية الجنوبية، وهي تتبع القنفذة، وتقع بين ثريبان من الشمال، وبلاد بني شهر من الجنوب. وقبيلة عمارة، أحدى فخوذ قبائل بَلْقَرن. انظر: البركاتي، **الرحلة اليمانية**، ص ١٠٢، كحالة **معجم قبائل العرب**، جـ ١، ص ١٠٣، و جـ ٢، ص ٨٢٢.

(١٦) تسمى الواحدة من هذه القبعات مظلة أو طَفَشَة، وهي تصنع من ورق أشجار الدوم (الطفي) أو من خوص النخيل، وتزين مظلات النساء بالودع، وبسيُّور ملونة من القماش أو الجلد.

(١٧) المزمار: يعرف محلياً باسم الصُّفَرِيْفَة، وهي تصنع من لحاء عروق شجر السمر، أو شجر العاش، أو من مواسير حديدية خاصة.

(١٨) في الأصل حاظ.

(١٩م) أسواق بارق هي كما يلي:
آل حميضة، وسوقهم الربوع [الاربعاء] (في العَجَمَة). آل موسى، وسوقهم الاحد (في القُرَيْحَاء) [في الاصل قريحات]. آل حميضة وسوقهم الجمعة (في اثْرُب) [في الاصل أثرق]. آل سباعي، وسوقهم السبت (في سَاجِل) [في الاصل ساحار]. بللسمر، وسوقهم الثلاثاء (في المنظر).
(المترجم) يطلق اسم بارق على منطقة تمتد من وادي خاط شمالاً إلى وادي بَقْرَة جنوباً، ومن جبل اثرب شرقاً إلى حَقْو جبل مرسى غرباً. ويطلق اسم بارق أيضاً على مجموعة من القبائل التي تسكن المنطقة التي يشملها هذا الإسم، ومنهم حميضة المشار إليها في النص. أنظر: **النعمي، عسير في الماضي والحاضر**، مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر، جدة، ص ١٢، ٥١.

(٢٠م) الضأن، لونها أبيض، وذيولها مكتنزة بالشحم، وأحياناً رؤوسها سوداء، والماعز تتراوح ألوانها بين البني، والابيض والأسود، أو متعددة الألوان. ويوجد في العرضية نسل محسن من الماعز، عادة ألوانها بنية، ولها علامات في رؤوسها تشبه القرون. وفي الحجاز، لون الضأن أبيض، ولون الماعز هو الأسود [في الغالب].

(H. St. B. Philby, «The land of Sheba,» Geogr. J. 92, (1938) - 1 - 21, 107 - 32 - and «Sheba's Daughter,» London, 1939).

(٢) الحَسْبَة، أو الأَحْسَبة: واد يقع إلى الجنوب من وادى نَاوَان، وإلى الشمال من وادي قَنُونَا، وهو ينحدر من جبال السروات، ويصب في البحر الأحمر، وترفده عدد من الشعاب، ويسكن في أعلاه بعض فخوذ بني عُمر، وغامد الزِّنَاد. وفي أسفله الأشراف العبادلة، وبعض فخوذ زُبَيْد. انظر: السلوك، علي بن صالح؛ **المعجم الجغرافي للبلاد السعودية (بلاد غامد وزهران)**، منشورات دار اليمامة بالرياض، بيروت ١٣٩١، ص ٤٦؛

AL-Zayla ʿī, «The Southern Area of the Amirate of Makkah,» Ph.D. Thesis, University of Durham, 1983, PP. 193 - 198.

(٣) هذه السلال تعرف محلياً باسم الفَدَائم (مفرد فِدَامَة)، وهي تصنع مع الطُّفِي، أو الحَصِيرْ المستخرج من ورق أشجار الدوم الذي ينتشر بكثرة في تهامة.

(٤م) الخِيّ: هو الشداد الوحيد الذي يستخدم في تهامة، وهو يوضع على امتداد ظهر الجمل بكامله. (المترجم) يصنع الخي من الحصير الذي يحشي بنبات الحلفا، أو العَلَال (البَرْدِي) بعد خياطته باحكام بحبال تصنع أيضاً من الحصير، أو من لحاء السلم، أو المرخ. وتثبت على جانبيه عصاتان قويتان ذات طرفين بارزين، تعرف الواحدة منهما باسم «المِنْضَاح» وتلف عليهما حبال التحميل الغليظة. ويدعم الخي من الامام باداة مثلثة الشكل تعرف باسم «الشَّغْبَة»، وهي تصنع من خشب الاثل أو السدر.

(٥) الأَصْدَار: جمع صدر، وتطلق على المنطقة المشرفة على تهامة من جبال الحجاز. أنظر: السلوك، علي بن صالح، **بلاد غامد وزهران** ص ٥١.

(٦) ويعرفان باسم شدا الأعلى وشدا الأسفل، فالأول يقع إلى الجنوب من مدينة قِلْوَة المعروفة في تهامة الباحة، بحوالي خمسة عشر كيلو مترا، وأغلب سكانه من فخوذ قبيلة زهران، ويقع الثاني إلى الجنوب من شدا الأعلى، وغربي مدينة المخواه المذكورة، بحوالي عشرة كيلو مترا، ويسكنه بعض فخوذ قبيلة غامد المشهورة، أنظر: السلوك، **بلاد غامد وزهران**، ص ١٤١ ـ ٣.

(٧) في الأصل «بنو عمرو».

(٨) كانت الظفير العاصمة الادارية لبلاد غامد وزهران في الفترة من سنة ١٣٥٣ ـ ١٣٧١هـ، ثم انتقلت منها إلى مدينة بَلْجُرَشي، ومنها إلى مدينة الباحة في أواخر سنة ١٣٨٣هـ، ولاتزال الباحة إلى اليوم المقر الاداري لبلاد غامد وزهران، أنظر: المرجع نفسه، ص ١٦١.

(٩م) وفيما يلي الأسواق المجاورة للمخواه:
القنفذة، وسوقها الخميس. وادي الاحسبه، وسوقه الجمعة اليمانية [تعرف باسم جمعة زُبَيْد]. قَرْمَا، وسوقها الاحد. وادي يَبْس، وسوقه الاثنين (غامد). سوق الثلاثاء لبني عِيْسَى. وادي دَوْقَة، وسوقه الأحد. بنو سهيم، وسوقهم الاثنين. بنو بُحَيْر، وسوقهم الربوع، بنو المُنْتَشِر، وسوقهم الخميس. العَوَامِر، وسوقهم الاحد، شُمْرَان، وسوقهم السبت، بنو رِزْق، وسوقهم الاحد، عُمَارَة، وسوقهم الثلاثاء. آل سليمان، وسوقهم الاربعاء (في نِخَال)، الجَوْف، وسوقها الثلاثاء.

(١٠) واحدتها جَنْبِيَّة، وهي خنجر طويل تشد بحزام على الوسط، وهي السلاح المفضل في المنطقة الجبلية الذي يحمل من أجل الزينة والدفاع عن النفس، على عكس تهامة التي يفضل أهلها حمل السيوف،

ويجعلون أنفسهم كأنهم في بيوتهم.[٨٧م]

وصلنا الطائف في الرابع والعشرين من شهر يونية، بعد أن غطينا من أبها ٣٠٠ ميل، قطعناها في ستة عشر يوماً من السير. فقد وصلنا النماص في أربعة أيام، والظفير في ستة أيام أخرى، مضافاً إلى ذلك ستة أيام إلى الطائف. ويوجد، قليلاً إلى الشرق من الظفير، طريق إضافي للجمال، يصل الطائف في أربعة أيام ونصف. ولكنه يستلزم حمل الماء لمدة يومين؛ لأن الماء ضروري في كل مكان من هذه الجبال. لقد سافرنا بجد، وبمعدل نحو عشر ساعات يومياً على الطريق، وبالرغم من أن طعامنا غير المتنوع كان يتكون من خبز البر المغموس في الزبد، وأحياناً صحن من التمر إلا أنني بقيت لائقاً جداً.

أمراء المناطق والمراكز الذين قابلتهم خلال هذه الشهور الثلاثة، قدموا لي كثيراً من المساعدة، وكرم الضيافة التي اشتهرت به الجزيرة العربية. وقد سافرت بين قبائل كثيرة لم يقابل أهلها إلا قليلاً من الإفرنجيين والمسيحيين، هذا إذا كانوا قد قابلوا أياً منهم، وكنت دائماً أستقبل استقبالاً جيداً، لأن المسافر الذي يسافر [في هذه البلاد] بإذن من ابن سعود، يُتَكَفَّل له في كل مكان بالأمن والمساعدة.

لقد تكرم السيد هـ. سانت ج. ب فيلبي بمقابلة وتصحيح كتابة الحروف العربية بالحروف الاتينية لجميع الأسماء العربية في هذا المقال، فأنا معترف بجميله وفضله على مباشرته لهذا العمل، خاصة بعد أن رأى عددا من الاخطاء التي كانت موجودة حقاً. كما أود أيضاً أن اعترف بجميله في وضع مخطط رحلته من جازان إلى الليث بين يدي، وسماحه لي بأن أضيف جزءاً كبيراً منها إلى خريطتي (٨٨).

مجموعة من النباتات التي تم جمعها أثناء هذه الرحلة، هي في المتحف البريطاني (التاريخ الطبيعي).

●●●

الهوامش والتعليقات

(١م) في شهري يونية ويولية سنة ١٩٤٧م، سافرت على جمل عن طريق الساحل من القنفذة إلى صبيا وجيزان، ثم من أبي عريش إلى جبل فيفا، ومن هنا صعدت إلى جبل بني مالك، ثم من جبال آل تليد المشابكة والعديمة المنافذ إلى ظهران الجنوب، ومن الظهران زرت نجران، ثم من هناك سافرت إلى أبها. وقد ضُمَّت بعض المعلومات التي جمعت عن هذه الرحلة، إلى هذا المقال، أنظر أيضاً

عندما مررت بها، ولكن إلى الشمال لم تكن هنالك إلا زخات خفيفة فقط منذ شهر نوفمبر.

وقبائل شمال عسير هم: بَلَلَّحْمَر، وبَلَلَّسْمَر، وبنو عمرو، وبنو شِهْر الذين يسكنون حول النماص. وهذه القبائل الأربع تعرف جميعاً باسم رجال الحَجَر [الحجارية][٨٣]. وهم يسكنون في منازل متعددة الأدوار، مبنية من كتل كبيرة من الحجر المشذب، ومكسوة أحياناً بغطاء من الجص الأبيض، ومزخرفة، حسب العرف السائد في بلاد الحجاز، بنماذج من المرو مثبتة حول النوافذ الضيقة. وتسكن القبائل الواقعة خلف النماص في بيوت بنيت بضخامة، وتتكون من طابق واحد، ولها في الغالب فتحات ذات أحجام كبيرة، وسقوفها تستند إلى صف من دعائم عملت من خشب العرعر، والطلح المزخرف بنماذج محفورة، والمطلي بالقار الأسود. وفي بعض الأحيان، يسكنون في غرف أصغر، بنيت فوق حظائر الماشية، ومعظم هذه البيوت تختفي خلف جدران عالية مفرغة، وفي الجو الدافىء ينامون في العراء فوق سطوح مكشوفة. أما بالنسبة لحشرات البق، والبراغيث فهي شائعة في البيوت في هذه الجبال.

وصلنا النماص في يوم الاحتفال بالختان، وهذه القبائل تقتصر فقط في احتفالاتها بهذه المناسبة على اليوم الذي يسبق هذه العملية والتي تتم لصبية من سن العاشرة إلى الثانية عشرة سنة. إنهم يحتفون بجميع القادمين على عكس الاحتفال في وادي حلي[٨٤]، فقد ظهر هنا نحو ١٥٠ فرداً من رجال القبائل مسلحين ببنادق المَسْكِيْت التي لا تطلق بواسطة زناد، وإنما بواسطة فتيل بطيء الإشتعال، ثم انقسموا إلى أربع فرق، واندفعوا مسرعين وفي تتابع مستمر إلى جَرِيْن خال، حيث أخذوا يرمون بنادقهم عالياً في الهواء، ثم أطلقوا وابلاً من النار المحتدمة، وتراجعوا ليعيدوا تعبئة بنادقهم مرة أخرى، بينما اندفع أفراد الفريق التالي بخفة، وهم يلبسون أفخر ثيابهم، ويتمنطقون بحلية من قنائن البارود الفضية، ويتزينون بأكسية أخرى مزركشة. فكانوا في منظر بطولي عبر دوامة من سحب الدخان، وجماهير كثيفة من المتفرجين الذين يغطون الأسقف والسطوح المجاورة، وهم يصمون الآذان بضجيج لا نهاية له.

وبعد أن ارتحلنا على امتداد بلاد بَلْقَرْن، وخَثْعَم[٨٥]، دخلنا منطقة غامد التي تدار مركزياً من الظفير، وهي قرية صغيرة، بنيت حول قلعة، وسوقها الثلاثاء، ومنها يوجد منظر جميل لجبل شدا الشامي الذي يشكل إطاراً عند نهاية الوادي. لقد وجدت قبيلتي غامد وزهران، بشكل ظاهر، من أكثر قبائل الحجاز إكراماً للضيوف[٨٦].

ولا توصد الأبواب بين القبائل المضيافة، والضيوف يدخلون المنزل إذا كان صاحبه خارجاً عنه،

هذه الجبال بين ٦٥٠٠ ـ ٩٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، بحيث يكون أقصى ارتفاعها حول السودة، وهضبة بيجان.

وعموم الصخور هنا من أصل بركاني، ولكن القليل من القمم المشهورة مكونة من الحجر الجرانيت، مثل جبل منيع في تنومة، وجبل قَشْنَة، جنوب الظفير، وجبل إبراهيم في بلاد بني مالك، وجبل بَيْضَان في بلاد بني سعد، وجبل إبراهيم هذا يشاهد من مسافة كبيرة، وهو عجيب الشكل ناعم الوجه، وذو نواة جرانيتية ترتفع من هضبة بازليته.

ويلاحظ أنه من حدود اليمن إلى وادي جدرة، جنوب الطائف، تجري المياه بالقرب من سفوح الجبال، أحياناً في حدود ١٠٠ ياردة من الطرف، وقلما ترتد عنها إلى أكثر من ميل. ويلف تهامة سديم دائم، وهو كثيف جداً في بعض الأحيان حتى أن الجرف الشديد الإنحدار الواقع على ارتفاع ٣٠٠٠ قدم يقع كلية تحت غشاوة تجعل رؤيته مفقودة.

وتتدنى الرؤية خلال أشهر الصيف إلى أميال قليلة على السهل الساحلي، بسبب سحاب بحري عال، وتكون هذه الرؤية مستقرة في أوقات الصباح الأولى، ولكنها تنخفض خلال النهار بفعل رياح غربية قوية للغاية، تهب في حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً، وتتلاشى عند الغروب[٨٠]. وتقتصر الحياة النباتية على السفوح الشرقية، لأن المنحدرات الغربية الشاهقة صخرية، وتفتقر إلى التربة الصالحة، والعوامل المساعدة على الإنبات. والأعشاب غير شائعة هنا، ما عدا الورود البرية، والعوسج، وزهر العسل، وزهور الربيع المتعددة الألوان، وزهور القرنفل، والكَحْلاء، والكزبرة، والسرخس مع الحُمَّاض، والقُرَّاص [القُطْبَة أو الزُّغْب]، والبرسيم، وجميعها تنمو على امتداد الممرات، وبوفرة تشبه وفرتها في الصيف الإنجليزي، في حين تعطر نباتات الخزامي والشِّذَاب بعبقها الهواء الدافىء. ويوجد قليل من شجر الصفصاف على امتداد الأودية، وكلما أمكن فإن جانبي الجبال والأودية مزودة بمدرجات تنمو عليها محاصيل البر، والشعير، والسَّيَّال، والذرة[٨١].

وتعتمد هذه الزراعة على الأمطار، ما عدا قليل من الحقول، غالباً حقول البرسيم، التي تسقى عن طريق الآبار، حيث يرفع منها الماء، بواسطة الحيوانات، في غروب جلدية تنزل إلى البئر على بكرة يحملها قائمان [سَانِيَة][٨٢]. وهي الطريقة الوحيدة المتبعة في رفع الماء من الآبار بغرض الري، سواء في الحجاز، أو في تهامة، وتنمو أشجار الكروم بشكل مألوف على عروش فوق هذه الآبار. ويزرع البطاطس، والطماط، والكوسة في المنطقة المحيطة بالنماص. وتسقط الأمطار في أي شهر، ولكنها أكثر اعتياداً بين نوفمبر ويناير، أو في أغسطس وستمبر. وقد كان ثمة مطر حديث إلى الجنوب من النماص

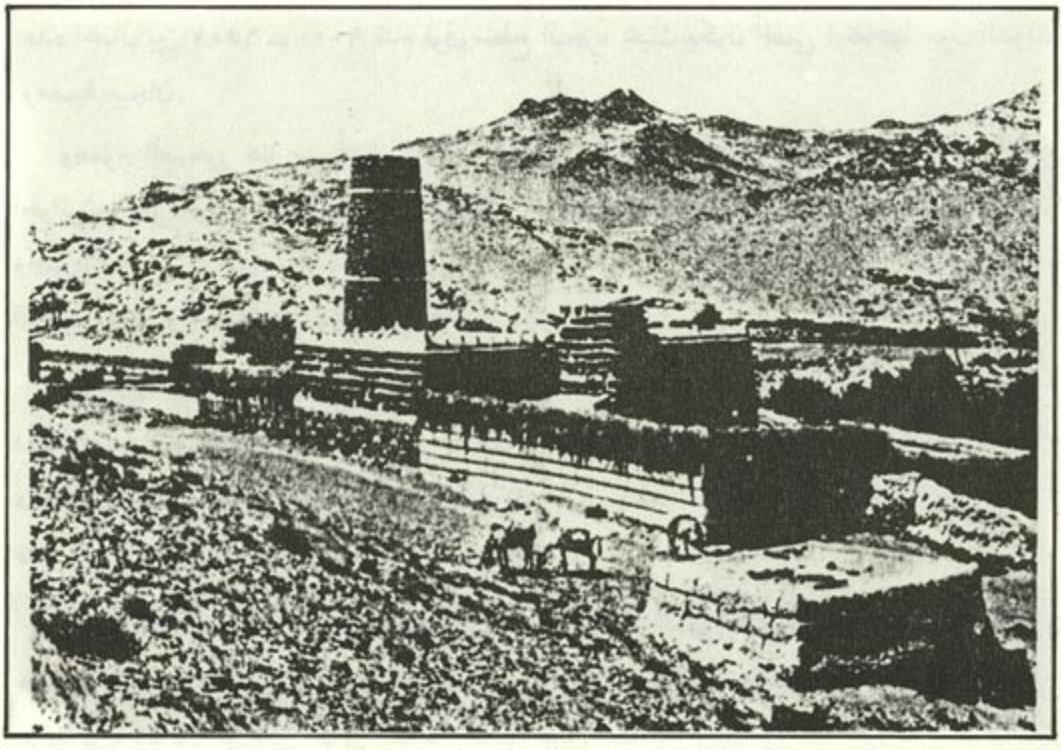

• منازل طينية مغطاة بخطوط من القرميد البارز، وبرج مبني من الحجر في عسير •

ونظراً لأن الطريق الجبلي إلى الطائف غير عملي لاستخدام الجمال ولأن الإستئجار ينتج عنه تأخير متواصل، فقد اشتريت من أبها ثلاثة من الحمير. وكان طريقنا هذا يمتد عبر الثُّمَاص، والظفير على طول امتداد قمم سلسلة جبال السروات. حيث توجد عقبات كبيرة متعددة، وأضلاع لا نهاية لها من التلال المتتابعة الشديدة الإنحدار. وعموماً، فمن المستحيل عليّ، تبعاً لذلك، أن أركب، لذا مشينا ثلاثة أرباع الطريق إلى الطائف، حيث وجدت صعوبة في المشي على قدميّ، لأن حذائي تقطعت، ولم يكن في وسعي الحصول على أخرى.

تحتوي الجبال التي خلف عقبة شعار على صخور جرداء، ولكن توجد بالقرب من بيْحَان غابة كثيفة من شجر العرعر. وبعد أن تنقلت أسفل المنحدرات الجبلية، ثم على امتداد ذرى الجبال حتى الظهران، اعتقدت أن شجر العرعر الذي شاهدته حول السودة قبل سنة، كان استثناء في جبال جرداء خالية من الأشجار، ما عدا شجر الطلح المتناثر هنا وهناك. وكان علي الآن أن أجد ذلك إلى الشمال من أبها. إن قمة سلسلة جبال الحجاز جيدة التشجير بصورة عامة، وهي، في بعض الأماكن، كثيفة حقاً، ومكتظة بأشجار العرعر، والزيتون البري، والسُّمَّاق، والسنط، والطلح[٢٧٩]. ويتراوح ارتفاع

ليلية على الجبال نتج عنها سيول متتابعة أدت إلى عرقلة رحلتنا بشكل سيء[٧٥] ؛ لأن طريقنا الوحيد يمر في مجرى الوادي. وكنا نرى القردة يومياً، وأحياناً في مجموعات كبيرة، وكذلك الأرانب البرية التي شاهدناها في كل مكان أثناء الرحلة. وهنا تكثر الذئاب، والضبعان، والنمور الصغيرة ذات الألوان المختلفة، والوعول التي تختلف على الجبال، ولكن الغزلان توجد فقط في السهل الساحلي. ثم واصلنا سيرنا حول الجانبين الشرقي والشمالي لجبل الريث، حيث يحف شجر الدوم الكثيف بواد لا نهاية له، وهو يتلوى عبر تلال مجدبة وقائضة. وكانت الحرارة شديدة، والسيل المعكر بالطمي، وغير الصالح للشرب يلتف حول ركبنا، وبعد وصولنا إلى السهل، استدرنا جنوباً مجتازين حَقْو، وصعدنا جبل هَرُوْب، حيث كان الجو بارداً على منحدرات الجبل الذي تقع، على قمه وتحت إكليل من السحاب، أراضي العزيين ومُنْجد، فهناك ينمو شجر البن، والبر، والشعير، وفي الودي ينمو الموز، والبيو.

وفي طريقنا إلى صبيا، مررنا بصبيا الجديدة، عاصمة الإدريسي المهجورة، التي تداعى قصرها المزخرف، وتحول إلى خرائب. وفي هذه الأيام يدور حديث عن الإنتقال إلى هناك؛ لأن صبيا بالي [مدينة صبيا الحالية] تعاني كثيراً من السيول[٧٦]. وصبيا مدينة كبيرة، بيوتها من العشش، وبها قليل من المنازل المبنية من الحجر، وجميع القرى التي تغطي المنطقة المحيطة بها، أكبر بكثير من تلك التي في تهامة الشام. والزراعة تنتشر بكثرة حيث، ينمو هنا شجر النِّيْلَة، بالرغم من أن نموه لا يبعد كثيراً إلى الشمال، ويعمل منه الصباغ [النِّيل] في أوان كبيرة على آبار القرية. ومدينة جيزان ميناء محلي، ومنها تدار تهامة عسير؛ بينما القنفدة، وتعرف بصورة عامة باسم البندر، تخدم تهامة الشام. وكلا الميناءين متاحان فقط لرسو السنابيك التي تتوقف أيضاً في البرك، والقحمة. وهنا حضرنا سوق السبت في أم الخَشَب بوادي بيش[٧٧]، أحد أكبر أسواق تهامة، حيث تصنع الخوذ من ورق الدوم، وهذه الحرفة من خصائص هذا الجزء من تهامة، وهي تلبس من قبل الرجال، ولو أن المسنين منهم يفضلون قبعات القشّ ذات الأهرام الواسعة والحافات العريضة.

عدت الآن إلى أبها عن طريق وادي عتود، وعقبة ضلَع السهلة، حيث يكثر الحمام الأخضر في هذا الوادي، وتوجد فيه أيضاً طيور الحُبَّاك، وطيور الرَّفْرَاف، والكروان، والشُّبَد أو الضُّوع، وطائر الأبلق ذو اللون الأشهب والذيل الطويل. ويشيع في هذه الجبال وجود طائر العقاب الكاسر الجناح[٧٨]، وهو يهبط عبر التلال الجبلية إلى مستوى ٢٠٠٠ قدم، وتنمو هنا أنواع كثيرة من الزهور سواء على الصخور البركانية التي تكون الوجه الغربي للجبل، أو على القمة الجرانيتية.

وأربعون رجلاً من أخويا الإمارة خلال سنتين. هنا في هذه المنطقة النائية المقفرة، التي يصعب الوصول إليها، والمتفشية فيها الحمى، بين قبائل متوحشة لم يتم إخضاعهم إلا قريباً، يعمل على تطبيق القانون، وحفظ النظام فيها، أمير، ومجموعة من الأخويا ، بفضل هيبة، واحترام اسم ابن سعود.

ويوجد إلى الشرق من وادي دَفَا بدو قحطان، وإلى الغرب منه توجد قبائل الرَّيْث، والعَزَّيِّين، وعلى طول الحدود اليمنية قبائل خولان آل تَلِيْد وقبائل بني مالك، وبَلْغَازي[٧٢]. وقد وَجَدْتُ هؤلاء القبائل مضيافة، ويختلفون في المظهر عن بدو العرضية. فألوانهم فاتحة، وأنوفهم معقوفة، ولحاهم بارزة، وهم يشبهون بدو وسط الجزيرة العربية. إنهم يلبسون مئازر قصيرة جداً من القماش لا تكاد تستر عوراتهم عندما يجلسون القرفصاء، وشعورهم طويلة، ولكن أولئك الذين لم يختنوا منهم بعد يحتفظون في أعلى رؤوسهم ببقعة واسعة محلوقة[٧٣]. ويؤخر الختان عند هؤلاء حتى يبلغوا من سن العشرين إلى الثلاثين سنة، وربما يكونوا قد تزوجوا، ولهم أطفال[٧٤]. وهم مسلحون بشكل جيد، ومعظم بنادقهم صناعة إيطالية مؤرخة سنة ١٨٨٩م. إنهم يقطنون في دائرة بسيطة، ووضيعة، ويأوون إلى مساكن من الحجر الخشن المسقوف بالحشائش وأغصان النبات، ويضعون عليها في الجو الرطب جلوداً مدبوغة لكي تبعد المطر، وتقي ما بداخلها من البلل. ولديهم قطعان كبيرة من الضأن، والماعز، وبعض البقر؛ ويمتلكون من الجمال أكثر مما تملكه القبائل التي إلى الشمال منهم، وينمو عندهم، في أعالي الجبال، بعض شجر البن، وقليل من البر، والذرة، والتنباك، ولكنهم بصفة عامة لا يشتغلون بالزراعة، وإنما يتاجرون بالسمن في سبيل الحصول على الحبوب، والبن من أسواق تهامة، وحدود اليمن، حيث يعملون على جلب السمن على ظهور جمالهم عبر جبال شديدة الإنحدار، عديمة المسالك. وبدلاً من استعمال الشداد أو الخي، فإنهم يربطون الأكياس المصنوعة من جلد الماعز على ظهور الجمال فوق جلد آخر مطوي.

ويقع جبل فيفا على الحدود اليمنية، وعلى ارتفاع ٦٠٠٠ قدم، وهو مكتظ بالمدرجات التي يزرع فيها شجر البن، والموز وثمر البَبُو، والعنب، والرمان، والخوخ، والبرشومي، والذرة، والبر، والشعير. ويجاوره جبل بني ملك على ارتفاع ٧٦٠٠ قدم، والزراعة فيه أيضاً على شكل مدرجات، حيث يزرع فيه شجر البن، والموز، والذرة، والبر، والشعير. أما إمدادات الماء فهي غير كافية في كلا الجبلين، وعليه فإن قربة الماء الكاملة تعطي، في جبل فيفا يوم السوق، مردوداً قدره أربعة ريالات.

ثم سلكنا من جلة الموت طريق دَفَا الذي سرعان ما تغير اسمه إلى بيش، حيث نزلت أمطار غزيرة

والأعلاف، وقليل من الماشية. ويزرع في هذه الجبال البر، والشعير في الشتاء؛ والذرة في الصيف. وقد وصلت أبها في الثاني من شهر مايو عندما كانت كثير من الحقول خالية، في حين أن بعضاً من الذرة كانت تبذر في الحال، وأن الشعير، والبر لم يحصد كله بعد. وقد عُملت المنحدرات المزروعة في كل مكان على شكل مدرجات، وقليل من الحقول تروى بواسطة الآبار، وفاكهة الحجاز هي: المشمش، والخوخ، والبرقوق، والكمثرى، والتفاح الأخضر الصغير، والعنب، والرمان، والتين، والبرشومي، واللوز.

ثم سافرنا من هنا إلى ظهران الجنوب التي وصلناها بعد أربعة أيام ونصف. مررنا خلالها ببلاد شهران، ثم قحطان، إلى الوراء من تَمْنِيَة، وهما قبيلتان كبيرتان وقويتان[٦٦]. ومما يبعث على السرور حقاً، هو أن من يسافر عبر هذه المناطق الباردة والمنعشة حيث توجد قرى متصلة، يحصل على متعة لا نهاية لها. فهناك منازل متباينة في أشكالها، وطرق بنائها التي أعدت للدفاع، وبنيت بأحجام كبيرة من أدوار متعددة، ولكنها جميعاً على درجة من البهجة، والجمال المتناغم. وغرف الضيوف [في هذه البلاد] هادئة، ورحبة، والجدران مزخرفة من الأسفل بأشرطة من الألوان الخضراء، والحمراء، والسوداء، حيث قضينا أمسيات طويلة، وسعيدة بين رجال القبائل الذين يتجمعون حول محمصة البن، والذين لم تقتحمهم بعد تأثيرات الغرب النشاز.

ثم اجتزنا عقبة قَوَارِي التي يبلغ ارتفاعها ٩٠٠٠ قدم والتي تكتسي منحدراتها بأزهار القَابُوْر الذهبية اللون، ووصلنا في اليوم التالي إلى الظهران، بعد أن سافرنا في نصف اليوم الأخير عبر طبقة من الصخور النارية المهجورة التي تعلو طبقة أخرى من الصخور الجرانيتية. وتقع الظهران على ارتفاع ٧٥٠٠ قدم، وهي تسترعي النظر، لضيق، وازدحام، وكثرة أدوار منازلها التي بنيت على طول وادي عَرِيْن[٦٧]، حيث ينمو فيه قليل من شجر البن. وتشيع في هذه المدينة أمراض العين بصورة غير عادية. ثم نزلنا من هنا إلى وادي قَاعَة عن طريق عقبة مفتاح الخَشَبَة[٦٨]. وهي عقبة صعبة، وقد تأكد لنا من قبل، أنها لا تصلح لسير الجمال.

كانت الجبال هنا مغطاة ببساط من الأزهار البرية، وأشجار العرعر المتناثرة التي تنمو على طول أعالي الجرف[٦٩]، حيث سلكنا هذا الوادي عبر منطقة من شجيرات المناطق الحارة التي تكثر فيها طيور الغرغر أو الدجاج السوداني. وسرنا بمحاذاة سلسلة جبال مُشَيْت [مُشَيْط] حتى وصلنا جلَّة الموت[٧٠]. وهي بقعة مشئومة، يبلغ ارتفاعها ٣٥٠٠ قدم، وتقع على نقطة التقاء وادي دَفَا مع وادي ضَبْعَة في حوض بين جبال مرتفعة[٧١]. وفيها مركز حكومي صغير مات به من أثر الحمى أربعة

من القنوات تسقي جميع المستويات، حيث توجد محاصيل جيدة سقيت بسيول حديثة. وقد جلبت الأمطار الشديدة التي نزلت على الجبال خلال العشرة أيام الماضية، إلى الوادي طبقة كثيفة من الطمي. وهذا الوادي لا تزيد نهايته من أعلى عن ٢٠٠ ياردة في العرض. وهو حجري للغاية، ومعزول بواسطة جبال من الصخور الجرداء الشديدة الإنحدار. إنه منظر رائع ويبعث على الرهبة، ومهجور إلى أبعد حد، والصخور التي حول عقبة شعار لها لمعان فضي غريب. وفي أعلى العقبة [٢٦٢]، وهي سهلة نسبياً، توجد حلقة من القلاع التركية، ويوجد هنا أيضاً طريق تركي جيد يؤدي إلى أبها عبر بلاد بني مالك.

وقبائل عسير مجتمعة هي: بنو مُغِيْث، وبنو مالك [٢٦٣]، وعَلْكَم وربيعة، ورُفَيْدَة، بالإضافة إلى القبائل الصغرى المكونة من عاصم ورجال أَلْمَع الذين يسكنون في أسفل السُّوْدَة [٢٦٤]. وعلى طول الطريق الذي يمر في أودية صغيرة عبر التلال الجبلية، توجد القرى، وحقول القمح والشعير، وبساتين الفاكهة. والمنازل هنا مميزة، وهي مبنية من الطين، ولها مداميك متعددة على هيئة شرفات بارزة من الحجر أو القرميد، وضعت في النصف الأعلى من الجدران، لتقيها من التعرية. وتُحرس الحقول والنقاط المرتفعة بواسطة كثير من أبراج المراقبة، سواء المربعة منها أو الدائرية، وقد بنيت من الصخور الكبيرة المشذبة، وزخرفت بأربعة أشرطة خارجية من المرو الأبيض. بينما الأخرى مستديرة الشكل بصفة دائمة، ومبنية من الطين سواء بشرفات بارزة من القرميد، أو بدون ذلك [٢٦٥].

وأبها، مدينة صغيرة تقع على ارتفاع حوالي ٧٥٠٠ قدم فوق سطح البحر، وقد بنيت حول قلعة، وبها عدد من الدكاكين، وهي مركز إداري هام، يتولى إمارتها الأمير تركي السديري، أكبر أبناء عائلة مشهورة يتولى أفرادها أيضاً حكم جيزان، والقنفدة، وجدة، والجوف، والظهران على الخليج.

ويعقد سوق أبها يوم الثلاثاء، وهو فريد في ألوانه، حيث يلبس النساء فيه فساتين زاهية الألوان، ويضعن على رؤوسهن شيلات براقة. ويوجد من بين الأنواع الكثيرة من القبائل التي تهبط هذا السوق، رجال من قبائل تهامة، ونجديون في عباءات مصنوعة من وبر الجمال، وبدو من الصحارى العظيمة إلى الشرق، ورجال من الجبال بثيابهم الفضفاضة المطرزة بأشغال الإبرة، ورؤوسهم المتوجة بعصائب من النباتات العطرية، وبينهم أيضاً زوار من اليمن، وعبيد من أخويا الأمير. وتباع في هذا السوق، وفي زاوية مفصولة عن الأخرى، كل من الحبوب، والزبدة، والسمن، والحطب، والملح، والموز والحص أو البويات، والبن، والعسل، والبهارات، والأواني الفخارية، والأدوات الحديدية، والحصر، والسلال، والحبال، والملابس والجلود، والفاكهة، والأعشاب ذات الرائحة الذكية،

ويوم الختان يتجمع حشد كبير من المتفرجين، وبعد ظهر هذا اليوم بوقت متأخر، يرقص الأولاد، ثم ينسحبون إلى عشة معدة لتغيير ملابسهم، حيث يلبس الواحد منهم إزاراً من القماش، ويصعدون على أكتاف العبيد، ثم ينزل هؤلاء الثلاثة، ويمشون بثبات أمام الجماهير ويقفون وأيديهم مشدودة إلى صدورهم، وعندئذ يتم تنفيذ عملية الختان بواسطة اثنين من العبيد[٥٥]. ثم يصعد الثلاثة مرة أخرى على ظهور العبيد الذين يأخذونهم إلى الفرقة الموسيقية، ويدورون بهم بين الجماهير، وهم يؤدون بذراعيهم، وكتفيهم حركات راقصة. وقد أعرض أحد هؤلاء الثلاثة عن الركب، وقدم عرضاً طويلاً ومدهشاً من الرقص. ولم يظهر على أحدهم أي شيء من علامات الألم. وبالرغم من أن هذه العملية قد خففت في هذه الأيام بناء على أوامر الملك [عبد العزيز]، وأجرى عليها تعديل بمنع السلخ الذي كان سائداً في الماضي القريب، إلا أنها تجري بطريقة شاذة ومؤلمة[٥٦].

غادرنا حلي من كياد، وهي سوق كبيرة تعقد يوم الأحد، وتستخدم من قبل البدو المحيطين بها، وسرنا محاذين لقوس [حافة] وادي حلي عبر أراضي بني هلال[٥٧]. وهذه القبيلة الفتاكة، ورثة الإسم المشهور في الأساطير، تسكن حالياً في منطقة بركانية تمتد بين محايل، والبرك، والقَحْمَة[٥٨]. وتنسب الرواية المحلية بطولات أبي زيد الهلالي إلى منطقة وادي حلي، ويذكر أنَّ قبر ابنه العزيز هناك. وكان قطع الطريق، والقتل المتعمد، حتى وقت قريب، علامة مميزة لبني هلال، ويعتبرون حتى اليوم مبعث خوف للمسافرين الذين يسلكون هذا الطريق. إنهم قليلو العدد، ويعيشون حياة بدوية في هذه المنطقة البركانية[٥٩]. وقد حدث في الماضي كثير من الثورات ، من جبل الشريف الذي تقع بالقرب منه نواة بركانية كانت في حالة نشطة جداً، وحقل الحرة الذي يبدو بوضوح أنه خمد منذ زمن طويل. وهي تمتد نزولاً من هنا حتى البحر فيما بين عمق والرَّقَبَة، الواقعة إلى الجنوب من القحمة، بما في ذلك حَبْحَبْ الشيخ المشهور بالقرب من البرك[٦٠] ثم اجتزنا وادي حلي مرة أخرى بالقرب من مَحَايل، وهي قرية تتبع مدينة أبها إدارياً، وبها سوق السبت الهام، وتقع على ارتفاع ١٦٩٠ قدم فوق سطح البحر، وهي مثل جميع قرى العرضية، منازلها مبنية من الأحجار، ومن طبقة واحدة، وتنمو على سطوحها المستوية، في أوان خاصة، النباتات الذكية الرائحة.

هنا [في محايل] غيرنا جمالنا مرة أخرى، لأن الجمال لا يمكن أن تستكرى للسفر بعيداً عن القرى الخاصة بها. ثم سلكنا وادي تية إلى عقبة شَعَار، الممر الذي يصعد عن طريقه إلى جبال الحجاز. وتية واد غني مزروع بشكل كثيف من قبل فخوذ قبائل بني ثُوْعَة المستقرة[٦١]. وقد عملت السيول هنا على أحداث قطع بعمق ٤٠ قدماً نزولاً في الطين الرسوبي إلى قاع الحصباء في الأسفل، ولكن ثمة سلسلة

رفض أن ينهي وجبته وهرع لأخذه، وتلبس في الإحتفالات، بصورة خاصة، صديرية قصيرة، زاهية الألوان، ضيقة الأكمام، ويمتلك الأطفال، والشباب شعوراً طويلة فرق في الوسط، وتمرخ على طول المفرق بمعجون اللباب الأبيض المسحوق. ويلف الشعر بشريط جلدي رفيع، مزخرف في بعض الأحيان بالفضة[٤٦]، في حين تلبس بصورة دائمة عصابة من البرك، أو حزمة من النباتات الذكية الرائحة تغرز في الشِّلاَف[٤٧]. إنهم شعب نحيل البنية، وملونين، وشعورهم سوداء مموجة، بجانب ما يظهر عليهم من صفات المرح، والسعادة، والإنطلاق، كما أنهم يعرفون بضحكهم، ووداعتهم، وعدم جديتهم، وكذلك بتصرفاتهم العفوية، وقد لاحظت عدداً من حالات التراخوما، وقليلاً من قرحة المناطق الحارة، وحالة واحدة تقريباً مؤكدة من حالات الزائدة الدودية، ويوجد هنا مرض الدودة الغينية[٤٨]، وقد رأيت فيما بعد حالات متعددة حول صبيا.

وصلت إلى البيضين، قرية المشاييخ، لأجد الأهالي وجيرانهم يحتفلون بالختان[٤٩]. وهذا الإحتفال ذو أهمية عظيمة بين هؤلاء القبائل. وهو مناسبة للرقص الذي يستمر من أسبوعين إلى شهر. وتتم عملية الختان لفتيان بين سن السادسة عشر، والخامسة والعشرين[٥٠]. وقد ختن في هذه المناسبة أربعة أولاد فقط، رغم أن عدد المختونين يصل في بعض الأحيان من ٨ ـ ١٠ أشخاص. إنهم يرتدون ثياباً مميزة تتكون من سروال ذي طرفين مشغولين بخيوط حمراء تحيطان بأسفل الساقين تحت تنورة كاملة البياض مشدودة بحزام على الوسط[٥١]، ومعاطف حمراء براقة [صديرية].

يتجمع الجمهور كل عصر ية وفي المساء، والثَّلاَّبَة يرقصون بينهم، والموسيقيون زنوج، وأدواتهم الموسيقية هي: الزَّلَفَة، وهي طبل واسع يضرب باليدين، واثنان من الأَزْيَار [مفرد زِيْر] يدقان بواسطة المضاريب، وزمارتان تدعى الواحدة منهما صُفُرَيْقَة[٥٢].

تدار بواسطة الزلفة حركات الركض المعقدة التي تخضع لطابع معين، ويرقص الثَّلاَّبَةُ جماعة وفرادى، وهم يجثمون ويحنجلون [يهكعون ويقفزون] بينما يحملون في أيديهم خناجر مسلولة، يحركونها أمام أجسامهم، وقد انضم إليهم طفلان صغيران ليتعلما الرقص، وبقية الأطفال يتدربون خارج الحشد، بينما يوجد خلفهم الجَيْش أو الفرسان في صف واحد[٥٣]، وهم يهزون أنفسهم على وقع الطبول، ويحملون في أيديهم سيوفهم المسلولة والمشرعة إلى أعلى، وتراهم في ضوء القمر متوجين بالزهور، ونصف عارين.

وقبل إجراء عملية الختان بيومين، انطلق الأولاد راكبين جملين، وبصحبتهم أصدقاؤهم، وتتقدمهم راية، ليدوروا حول القرى المحيطة بهم، حيث يحتفى بهم فيها، ويرقصون في كل منها[٥٤].

ولا يملك التهاميون إلا قليلاً من الجمال، ومعظمها تمتلكها القبائل الساكنة إلى الشمال من القنفدة، وهم يستخدمون البقر في حرث الأرض وإقامة العُقُم، أو السدود الترابية، وقد علمت أن رجلاً غنياً يمتلك من ثلاثين إلى أربعين رأساً من البقر، لذا فمن الواضح، أنهم يمتلكون أكثر مما رأيت. وتوجد أحجام طيبة من قطعان الماعز، وبعض الضان التي تودع بصورة عامة عند جيرانهم البدو لحفظها. وتربية الدجاج شائعة حول القرى، والحمير دواب ركوبهم المفضلة، وهم يسافرون عليها مسافات طويلة في وقت قصير يبعث على الدهشة، ويستخدمونها أيضاً في جلب الماء من الآبار في جرار كبيرة تعلق في شباك من الحبال على جانبي الحمار. والحطب شحيح على الرغم من وجود بقع من شجر الأراك، والأثل في الأودية؛ ويحافظون على أشجار السدر الكبيرة في الحقول لفاكهتهم[٣٨]. ويسكن هؤلاء الأعراب في عُشَشٍ مستديرة الشكل، جيدة التركيب، تُبنى في العادة على هيئة كتلة واحدة، على هيكل من الأغصان بدون عمود خشبي، وتكلس من الداخل بالطين، ومن الخارج تغطى بالحشيش الذي يحكم رباطه بحبال رفيعة. وتتكون المنازل في القرى من مجموعات، بينما يحاط بعضها بأفنية عالية مبنية من الأخشاب الرفيعة، ويحاط البعض الآخر بزريبة من مَرَامِيْد قصب الذرة. وقد جرت العادة أن تترجل عن الجمل، وتمشي على رجليك عندما تمر عبر هذه القرى[٣٩].

أواني الطبخ، والماء، وفناجين القهوة، مصنوعة محلياً، وبصورة عامة من الفخار الأحمر؛ وأقداح الشرب مصنوعة من الخشب[٤٠]. أما أطباق الطعام والسلال فهي من ورق الدوم [الطُّفِيْ]، وأواني الزبدة من لحاء الدباء؛ وهذه تعلق على جدران المنازل في معاليق جلدية[٤١]. وتستخدم الأسِرَّة المصنوعة من الخشب والحبال، للنوم والجلوس معاً؛ لأن أرضية المنازل تغص بالكُرْش [القراد الصغير]، ولو أن حشرات البق والبراغيث لا وجود لها في هذه القرى.

القهوة بالزنجبيل هي الشراب النعام[٤٢]. والفنجان يملأ دائماً، ويعطى الضيف فنجانين دفعة واحدة[٤٣]. والغذاء الرئيسي هو خبز أو ثريد الذرة، وفي حالة عدم وجوده أو انعدامه فإن الدخن يؤكل عريكاً بسمن الزبدة النقي. ويؤكل السمك المجفف والتمر بصورة عامة، ولكن اللحم وجبة ترفيهية، والحليب شحيح[٤٤].

ويلبس الرجال بصورة دائمة مئآزر من القماش مع خنجر أو جنبية مشدودة في الوسط من الأمام، ويحملون بشكل اعتيادي سيوفاً في أغمدة مفضضة، والأطفال يكسون الثياب منذ سن مبكرة. ويلبس جميع الذكور حتى الأطفال أحزمة من الجلد تحيط بالخصر[٤٥]، وفي إحدى المرات كان أحد الأطفال يأكل معنا، وقد نسي أن يلبس حزامه بعد الإستحمام، وحالما لاحظ عدم وجوده على بطنه

كل شهرين، بينما يصرم الدخن مرة واحدة بعد ثلاثة أشهر من تاريخ غرسه. ويعتبر قصب الذرة، وليس الدخن، علفاً جيداً حتى ولو كان يابساً، والمحاصيل التي يكتمل نموها في شهري يوليه وأغسطس تستخدم فقط لهذا الغرض، لأن الرياح الحارة التي تهب في ذلك الفصل تساعد على تجفيف الحبوب. ويزرع السمسم في أطراف الأراضي السيلية، حيث تزرع أيضاً مقادير صغيرة من القطن والفاصوليا. وليس لدى أهل تهامة دورة زراعية للمحصولات، فهم يبذرون كلما وجد السيل. وتوجد حول بعض الآبار بساتين صغيرة تستنبت فيها الطماطم، والباذنجان، والبامية، والدباء والحبحب والخربز، والنباتات ذات الروائح الذكية [٣٦]. ولا ينمو هنا البصل، والثوم، والفلفل الأحمر، فهذه المحاصيل مع محاصيل أخرى هي الليمون، والعنب، والمشمش، والخوخ، والرمان، والموز، والبطاطس، والبِرْك، والشَّار، تجلب إلى أسواق تهامة من جبال الحجاز. والتمر قليل، وينمو معظمه في أعلى وادي يبة، وعلى طول الساحل بين عَمِقْ، والقَحْمَة. وجملة التمور المستهلكة هنا تصل عن طريق البحر، أو من واحة وادي بيشة. أما شجر الدوم الذي تصدر أوراقه، وأيضاً تباع في هذه الأسواق، ويصنع منها الحصر، والزنابيل، والسلال، والحبال، فإنه ينمو فقط في أودية تهامة عسير [٣٧].

• وادي بَيْش عند دخوله من الحِبَاطة إلى تهامة •